(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) فاطر: ٣٢.

الإصطفاء

اتفقَ المفسرون على أن ميراث الكتاب خاص بأمة محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى قيام الساعة؛ لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس، واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسل الله، وحَمْل الكتاب الذي هو أفضل كتب الله، واختلفوا في بيان معاني الآية في الأصناف الثلاثة : الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات.

سكينة عبد المالك الصميدعي

ذكر ابن كثير (رحمه الله) في تفسيره أن (الظالم لنفسه) هو: المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرّمات. و(المقتصد) هو: المؤدي للواجبات التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات. و(السابق بالخيرات) هو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات، وهذا هو اختيار ابن جرير الطبري إذ أن الظالم لنفسه هو من هذه الأمة وليس كافراً كما ورد عن ابن عباس (رضي الله عنه) والحسن وقتادة حيث قالوا: إن هذه الأقسام الثلاثة هي كالأقسام الثلاثة المذكورة في أول سورة الواقعة وهم: أصحاب المشأمة، وأصحاب اليمين، والسابقون .وذكر ابن عاشور في تفسيره تحليلاً لطيفاً لمعنى قوله تعالى:(فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ) فاطر: ٣٢. قال: هم الذين يجرّون أنفسهم إلى ارتكاب المعصية فإن معصية المرء ربه ظلم لنفسه لأنه يورطها في العقوبة المعينة للمعاصي على تفصيلها وذلك ظلم للنفس لأنه اعتداء عليها إذ قصر بها عن شيء من الخيرات قليل أو كثير وورّطها فيما تجد جزاءاً ذميماً عليه، قال تعالى حكاية عن آدم وحواء حين خالفا ما نُهيا عنه من أكل الشجرة:(قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا)الأعراف: ٢٣. وفي ذكر الخيرات للسابقين دلالة على أنها مراده في القسمين الأوليين فيؤول إلى معنى ظالم لنفسه في الخيرات ومقتصد في الخيرات .. ويمكن أن يكون معنى (ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ) أنه ناقصها من الخيرات كقوله تعالى:(كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا)الكهف: ٣٣. أي: لم تنقص عن معتادها في الإثمار كما ورد في سورة الكهف.

وذكر الشنقيطي صاحب أضواء البيان أن (الواو) في قوله تعالى:(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا) حُقَّ لهذه الواو أن تكتب بماء العينين وبيّن في ثنايا هذه الآيات أن إيراث هذه الأمة لهذا الكتاب دليل على أن الله اصطفاها في قوله تعالى:(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) فاطر: ٣٢. وبين أنهم ثلاثة أقسام، ثم وعد الجميع بجنات عدن وهو لايخلف الميعاد في قوله تعالى:(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا) شاملة للظالم والمقتصد والسابق على التحقيق.وتقديم لفظ الظالم على المقتصد والسابق لا يقتضي تشريفاً، كمثال قوله تعالى:(لَايَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ)الحشر: ٢٠. وقيل: قُدِّم الظالم لكثرة الفاسقين وغلبتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم، والسابقين أقل القليل .. هذا ما ذكره الزمخشري ووافقه القرطبي ..كما روى القرطبي عن الإمام جعفر الصادق (رضي الله عنه) أنه قال: قدّم الظالم ليخبر أنهُ لا يتقرب إليه إلا بصرف رحمته وكرمه وأن الظلم لا يؤثر في الاصطفائية إذا كانت ثَمَّ عناية، ثم ثنّى بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاء، ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكر الله، وكلهم في الجنة بحرمة كلمة الإخلاص (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

(هذه الآية الكريمة جديرة بأن توحي لهذه الأمة بكرامتها على الله، كما توحي إليها بضخامة التبعة الناشئة عن هذا الاصطفاء وعن تلك الوراثة، وهي تبعة ضخمة ذات تكاليف، فهل تسمع الأمة المصطفاة وتستجيب ؟ إن الله سبحانه قد أكرم هذه الأمة بالاصطفاء للوراثة، ثم أكرمها بفضله في الجزاء حتى لمن أساء) سيد قطب في ظلال القرآن.

د. سالم مجيد الشماع

تعقيب على ما ورد في العدد ٦١ (في رحاب آية)

جميل إن يتفكر الإنسان بآيات القران الكريم . وان يتوصل بالتفكير العميق وإعمال العقل لما يريد الله للإنسان من خير ونعم . كما إن اجتهادات الفقهاء وعلماء اللغة الأوائل في تفاسير آيات القران الكريم تنم عن إدراك ووعي بما تحمله تلك الآيات وحسب المعطيات الفكرية والثقافية آنذاك كلٌ في زمنه .

ولا شك إن دراستها فيه فائدة كبيرة تجعلنا نتفهم ما يراد من المؤمنين لتثبيت الإيمان في قلوبهم، ولابد أن ندرك أيضا أن المعطيات الفكرية والثقافية والعلمية وتطورها وتغيرها في عصرنا هذا تجعلنا نبحث من خلالها معانٍ جديدة وتفاسير تواكب المجتمعات التي نعيش فيها .

وقد قرأت موضوع الاصطفاء في مجلة نصف القمر العدد ٦١ غرة جمادي الأول ١٤٣٤هـ آذار ٢٠١٣ صفحة ٢، وكاتبته المعروفة المربية الفاضلة العالمة السيدة سكينة عبد المالك الصميدعي، وأردت أن أتوسع شيئاً يسيراً مختصراً في معاني الآية الكريمة عن الموضوع، ولا ادعي الفقه في اللغة ولا التمرس في علوم القران، ولكني كمسلم مؤمن، ولي بعض الثقافات العلمية والثقافية العامة، ومن منطلق إن الإنسان المثقف الدارس قلما يحتاج إلى كثير من المعرفة أو الجهد في البحث عن موضوع ما في أي مجال عام لفهمه إلا ما ندر .

أود أن أضيف إلى الموضوع هذا بعضاً مما أراه مفيداً لي . ولعله درّ فائدة لآخرين، ولن ابخس رأي أحدا .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ فاطر ٣٢

أقول:

أورثنا: أي أعطينا ووهبنا ومنحنا .

الكتاب: هو الكتاب الذي خصه الله للبشر، وهو نفس الكتاب الذي أنزله الله على نفس كافة الأنبياء والرسل وفحواه: إن الله هو الواحد الخالق – كما جاء بسورة الإخلاص – له كل الأسماء الحسنى، التي تنادي بالتحلي بالاخلاق الفاضلة ليسود الخير العميم لكل البشر .

اصطفينا من عبادنا: اصطفى أي اختار كما جاء في كثير من الآيات في سورة البقرة وآل عمران والنمل والزمر ولكن في سورة الصافات جاء المعنى فَضَّلِ، في الآية ١٥٣ .

فمعنى اصطفينا من عبادنا أي اخترنا وفضلنا من الناس الذين يؤمنون بالله .

عباد الله هم البشر .. والبشر – باختصار شديد – وبالنسبة لوجود الله ثلاثة أنواع: قسم يؤمنون بالله الخالق الوحيد للكون وما فيه، وهؤلاء هم من يعبدونه ويؤمنون به .

القسم الثاني هم الملحدون الذين لا يؤمنون بوجود الله أصلاً وهؤلاء هم الكافرون – إي لا يصدقون أو يرفضون فكرة وجود خالق للكون وما فيه .

القسم الثالث هم من يؤمنون بوجود أكثر من اله خالق في الكون وهم المشركون .

سنتكلم عن البشر الذين يؤمنون بوجود الله تعالى والذي أورثهم الكتاب واختارهم وفضلهم وهم مجاميع ثلاث:

((ولكن هنالك سؤال يطرح نفسه: ماذا عن المؤمنين الذين لم يصطفيهم الباري عزوجل .. ومن هم، وكيف نعرفهم، نعلم إن الذين اصطفاهم الله سوف يدخلون الجنة، ولكن الذين يؤمنون بالله ولم يصطفيهم سوف يدخلونها أيضاً .

ثم هنالك مؤمنون بالله وكتابهم التوراة والإنجيل والزبور وما جاء به باقي الأنبياء .. هل اصطفى منهم أحدا أم إن الكتاب قد اقتصر على القران وعلى من تبع الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) أم إن عباد الله هم كل البشر سواء آمن به أم لم يؤمن وانه اصطفى منهم من آمن بكتابه (أي كل كتب الأنبياء) العابدون له ليدخلهم الجنة .. وهذا ما اعتقده . لعل هنالك متضلعين بالفقه واللغة يعطون جوابا أفضل)).

المجاميع الثلاث هي: ومنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله: هنا أتبسط بالموضوع قليلاً فا قول: إن الإنسان محكوم بعقله .. فالإنسان يأتي إلى الدنيا وليس له عقل يولد وفي كل خليه من خلايا جسمه عدد متساوٍ من المورثات (الجينات) التي تحتوي على معلومات وأوامر قد أودعت فيها بنصفين (من الأب وألام) وتقوم بإدارة فعاليات أعضاء الجسم (مثل أعمال القلب والكلى والرضاعة والأفعال الانعكاسية والتنفس) كل حسب وظيفته واختصاصه وبالوقت المحدد بتنسيق محكم .. ولدى الوليد قابلية البقاء والنمو وتقبل التعليم الفطري اللاإرادي بواسطة الخلايا العصبية ومن خلال ما يصل إليها من الحواس الخمسة وكذلك من خلال التعليم الإرادي بالتمعن والتذكر والاستماع والدراسة واكتساب المعرفة والعلوم .. ويكتمل عقله بعد سني الطفولة . ونجد حصول تفاوت كبير بين إمكانيات عقول الناس كل حسب تربيته البيتية ثم المدرسة إن كان قد انتسب لها ومحيطه ومجتمعه ومدى اطلاعه على العلوم والمعرفة ومدى فهمه وهضم المعلومات التي أتيحت له . والناس بهذا الصدد يتفاوتون بما في عقولهم وإدراكهم بين جاهل وعالم مع درجات بينهما .

فالظالم لنفسه: هو الإنسان الجاهل، لا يستطيع أن يؤدي الأعمال لان عقله لم يكن قد نهل علوم المعرفة والثقافة أو لم يستوعبها فهو ظالم لنفسه أي لعقله .

والإنسان المقتصد: هو إنسان محدود الثقافة وإمكانياته العقلية بسيطة يقوم بأعماله على قدر فهمه قد يخطئ قليلاً إلا انه أحسن حالاً من الظالم لنفسه .

أما السابق بالخيرات فهو الإنسان ذو العقل النير الذي تمرس بالعلم والثقافة ليس تلك المكلف بها.. الدينية والوظيفية فحسب بل إن عبادته تطال مستوى عمله وتطويره واكتشافه أو القيام باختراعات تؤدي الى تقدم المجتمع ولخير الإنسانية هذا هو عمل الخير .. وهؤلاء هم عباد الرحمن السباقون للخير الذين هم فعلاً ما يريده الله من البشر .. ينيرون الطريق لباقي البشر ليكونوا نبراساً لمعرفة الله وعبادته .

لاشيء يحدث إلا ماقد قدر الله بنظام يسير الكون إلى مستقر له كل شيء بإذن الله .

ذلك هو الفضل العظيم: أي إن الله قد فضل واختار قسما من البشر ومنحهم العقل النير ومتعهم بالإيمان والدين (وهو توظيف الأخلاق الفاضلة في الحياة الفانية) إنما هو فضل عظيم من الله على البشر .

والله من وراء القصد .